علم الأديان (مفهومه ، نشأته ، وأهميته)

يختص علم مقارنة الأديان بالوقوف على حقيقة المعتقدات الدينية، والتعرف على مدى صحتها، وما تشابه منها، ومواطن الخلاف بينها، ومن حيث الأصل اللغوي، تشير قواميس اللغة العربية إلى أن مادة ((قَارَنَ مُقَارَنَةً وقِرانًا)) تعني اقترنَ به وصَاحَبَهُ، وقَارنَ بين القوم أي سوى بينهم، وقارن بين الزوجين قِرانًا: جمع بينهما، وقارن الشيء بالشيء: أي وازنه به، وتتضمن المعاني اللغوية لكلمة ((المقارنة)) هنا عدة مفاهيم كالوصل، والجمع، والمصاحبة، والتسوية والربط، وهي مفاهيم تدل على الاقتران والمصاحبة والاشتراك، وفي اللغة الإنجليزية نجد أن كلمة (compare) تعني الموازنة أو الفحص من أجل التعرف على التشابه من عدمه، وعليه يمكن تعريف المقارنة بأنها: وسيلة للفصل بين شيئين وصولاً للحكم .

تعريف الدين لغةً: اسم عام يطلق في اللغة على كل ما يتعبد الله به، كما يطلق على معانٍ عدة منها: الطاعة والخضوع والاستسلام والاستعلاء والملك والسلطان والجزاء والحساب والمذهب والملة والشريعة، فهو مشتق من الفعل الثلاثي " دان " وهو تارة يتعدى بنفسه فيكون " دانه " بمعنى ملكه وساسه وقهره وحاسبه وجازاه كقولك: دان الله العباد بدينهم يوم القيامة أي يجازيهم ومن هذا قوله تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وفي الحديث: (كما تدين تدان) أي: كما تفعل يفعل بك، وإذا تعدى بالباء يكون " دان به " بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً أي اعتقده، واذا تعدى باللام يكون " دان له " بمعنى خضع له وأطاعه يقال: دنت له أي: أطعته، ويقال: دان بكذا ديانة وتدين به فهو دين ومتدين وهو أصل المعنى وبهذا سميت الشريعة ديناً ومن هذا قول الله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) . ويطلق الدين على الإسلام: ومن هذا قول الله تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) يعني الإسلام، وقول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ).

تعريف الدين في الاصطلاح الإسلامي: الدين هو: التسليم والاستسلام لله تعالى وحده وعبادته بما شرعه على لسان أنبيائه من العقائد والاحكام والآداب فهو منهج حياة وهو ملَّة الإسلام وهذا في الدين العام الذي هو دين جميع الأنبياء قال تعالى: ((لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)).

الفرق بين الدين والديانة: الدين: هو الإسلام وهو دين الاعتقاد والانقياد لله سبحانه وتعالى من آدم عليه السلام حتى رسول الله وخاتم أنبيائه ﷺ وأما الديانة: وهي ما أُنث منها فإنها تعود الى واضعيها من البشر أفراداً كانوا أو جماعات ويعني بها الديانات الوضعية والوثنية والتي لا تنسب الى الله عز وجل.

علم مقارنة الأديان : يقارن بين الأديان لاستخلاص أوجه الشبه والاختلاف بينهم، ومعرفة الصحيح منها والفاسد؛ إظهارًا للحقيقة (الدين) بأدلة يقينية، من حيث معرفة تواريخ نشأتها وتكوينها، ومن حيث تحليل مكونتها الفكرية والعقدية، وتأثيرها الاجتماعي، ومواطن انتشارها وأتباعها، يختص بالوقوف على حقيقة المعتقدات الدينية، والتعرّف على مدى صحتها، وما تشابه منها، ومواطن الخلاف بينها.

وعند ظهوره في الأوساط العلمية في الغرب، كان هذا اللفظ مرادفاً لمصطلح علم الأديان، أو ما يعرف في الثقافة الألمانية (religionswissenschaft)، وما يعرف في الثقافة الفرنسية، وإلى جانب لفظ الدين المقارن، عُرِفَ هذا العلم بمسميات مختلفة مثل تاريخ الأديان، وعلم الأديان، ودراسة الأديان، وكلها مسميات تشير، بمستويات متفاوتة، إلى الجهد المعرفي الذي يهدف إلى دراسة الظاهرة الدينية بشكل مقارن.

علم مقارنة الأديان ونشأته في الفكر الإسلامي

لم يظهر علم مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي حقلاً علمياً مستقلاً بذاته، مثل أصول الفقه أو الحديث أو التاريخ مثلا؛ فهو بطبيعته من العلوم البينية، التي تشتبك في الموضوع والقضايا مع غيرها، وإن استقل عنها في مناهج الدرس والمعالجة .

هذا العلم من الناحية التاريخية كان جزءاً من الثقافة الإسلامية منذ عصورها الأولى؛ إذ ظهرت في الدوائر المعرفية والعلوم الإسلامية –منذ بداية القرن الثالث الهجري– كتابات علمية ذات طابع كلامي، تهدف إلى دراسة أصول الأديان وطوائفها المختلفة من حيث معرفة تواريخ نشأتها ومعرفة أفكارها العقدية والفكرية، ويلاحظ توظيف علماء المسلمين ألفاظاً تضمَّنت الجهد المعرفي المقارن للدين دون ذكر لفظ المقارنة، مثل:

1- النوبختي المتوفى سنة 202 هـ ألف كتابه ((الآراء والديانات))، ويعتبر الباحثون هذا الكتاب أول كتاب في علم مقارنة الأديان.
2- المسعودي المتوفى سنة 346 هـ له كتاب: ((المسائل والعلل في المذاهب والملل)).
3- أبو الريحان البيروني المتوفى سنة 425 هـ ألف كتابه ((تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)).
4- أبو منصور البغدادي المتوفى سنة 429 هـ ألف كتابه ((الملل والنحل)) رد فيه على الملل والنحل مدافعاً عن الإسلام.
5- ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة 456 هـ ألف كتابه ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)).
6- الشهرستاني المتوفى سنة 458 هـ ألف كتابه ((الملل والنحل)).
7- أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفري المتوفى سنة 661 هـ ألف كتابه ((تخجيل من حرف التوراة والإنجيل)).
8- ابن تيمية المتوفى سنة 628 هـ ألف كتابه ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)).

بمعنى أنهم وظفوا مفهوم علم مقارنة الأديان دون ذكر المصـــطلح، وهؤلاء وإن لم يذكروا لفظ المقارنة، فإنهم درسوا الأديان والمعتقدات، عبر تطبيق مناهج وصفية وتحليلية نقدية، من خلال الإشارة إلى الفروق الجوهرية والشكلية بين تلك الأديان وتعاليم الإسلام، وظهرت الملامح الأولى لعلم مقارنة الأديان في الفكر الإســلامي من الناحية التاريخية ضــمن علم الكلام، الذي كانت وظيفته بيان المعتقدات الدينية والدفاع عنها، لكننا نلاحظ أن هذا العلم اكتسـب اسـتقلاليته وبدأ يأخذ مكانته العلمية على يد العامري (ت:381هـ) والبيروني (ت:440هـ) وغيرهم من عمالقة تاريخ الفكر الإسلامي.

ويعترف الغرب اليوم صــراحة بأن الدراســة المقارنة للأديان تعدُّ واحدة من الإنجازات العظيمة للحضــارة الإســلامية، أســهمت في التقدم الفكري للإنســانية كلها، وأقرت بذلك دائرة المعارف البريطانية، لقد كان وراء نشــأة هذا العلم في الفكر الإســلامي بواعث ودوافع كثيرة، تآزرت وتســاندت في توجيه العلماء، وحثهم نحو وضــع هذا الحقل العلمي الجديد وتنميته وتطويره موضـوعاً ومنهجاً، ويجئ حديث القرآن الكريم وإشاراته المتكررة إلى الأديان والعقائد الأخرى في مقدمة هذه الدوافع، ومنها تسامح المسلمين وترحيبهم بالانفتاح والحوار والمناقشة والاحتكاك.

ويظهر جلياً أن الفكر الإسلامي هو السباق لهذا العلم ولكن بعد ضعف المسلمين واستسلامهم لأدبيات التخلف اتجه الفكر الغربي نحو هذا العلم مبرزه من جديد، فأصبحت كبريات الجامعات الغربية كجامعة شــيغاغو(Chicago) التي فتح فيها قســم خاص ســمي(الأديان المقارنة) سنة1893 م، وجامعة مانشستر(Manchester) سنة1904م ، وجامعة السربون(Sorbonne) وبها قسم سمي(علم الأديان).

ومن الأسباب التي ساعدت مفكري الإسلام او حفزتهم على الاهتمام بدراسة الأديان فيمكن ان نختصرها بما يلي:

أولاً: وردت في القرآن إشارات متعددة الى أديان مختلفة وكانت موجزة فكان على العلماء المسلمين ان يتوسعوا في دراسة هذه الأديان لكي يقدموا المعلومات الكافية عنها وذلك في إطار تفسيرهم للقرآن الكريم.

ثانياً: إنه في إطار دعوة القرآن الكريم المسلمين الى التفكير كانت هناك دعوة ضمنية الى ضرورة التعرف على الأديان الأخرى حتى يتسنى معرفة الحق من الباطل والخطأ من الصواب في مجال الاعتقاد الديني.

ثالثاً: ان من اهم المعطيات الإسلامية أن الإسلام هو آخر الأديان السماوية فإن تأكيد هذا القول واثبات صحته يستلزم بالضرورة التعرف على الديانات الأخرى السابقة على ظهور الإسلام وما فيها من مواضع الصحة ومكامن الضعف ونقاط الاتفاق والاختلاف مع الإسلام وهذا لا يتحقق إلا بالدراسة العلمية المقارنة للأديان.

رابعاً: ورد في القرآن الكريم ان الدين الحق هو دين الإسلام وما عداه من عقائد وأديان باطل او انحراف عن الدين الصحيح فكان لا بد للعلماء المسلمين من التعرف على هذه العقائد والديانات الأخرى ودراستها دراسة علمية حتى يستطيعوا إثبات صحة المبادئ القرآنية من جهة ومن جهة أخرى حتى لا يأتي المسلم بقول او فعل يضاهي ما ورد في هذه العقائد التي تخالف العقيدة الإسلامية.

خامساً: عندما ازداد انتشار الإسلام وكثرت الفتوحات الإسلامية للبلدان الأخرى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية لتشمل أمماً متعددة ذات ديانات مختلفة فحدث احتكاك ثقافي وعقائدي بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى وهذا الاحتكاك أدى الى ظهور المناقشات والمجادلات الدينية

الأمر الذي استلزم من مفكري الإسلام أن يتعرفوا بعمق ودقة وشمول على حقيقة هذه الأديان التي يتناقشون مع أصحابها.

سادساً: لقد كان لازدهار التأليف في التاريخ الذي ظهر في الحضارة الإسلامية منذ وقت مبكر أثره الواضح والفعال في نشأة الدراسات العلمية للأديان وازدهارها في الفكر الإسلامي حيث اهتم المؤرخون بالحديث عن العقائد والأديان التي يؤرخون لأصحابها.

سابعاً: كان انتشار الفرق الإسلامية واختلافها فيما بينها أثره في الدراسات العلمية للأديان فمن جهة كل فرقة تحاول الرد على أصحاب الديانات الأخرى ومن جهة أخرى كانت كل فرقة تحاول ان ترجع أقوال الفرق الأخرى الى أصول أجنبية الأمر الذي استدعى معرفة جيدة بالأديان الأخرى.

ثامناً: إن علم مقارنة الأديان قد نشأ نتيجة التسامح الديني الذي كان يسود علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى بصفة خاصة ومع أصحاب الديانات الأخرى على وجه العموم.

اذن فيمكننا القول أن المسلمين هم السباقون في دراسة مقارنة الأديان وكانت دراستهم موضوعية تعتمد على المنهج العلمي السليم.

مناهج دراسة الأديان في الفكر الإسلامي

1– منهج التاريخ والوصف: شغل تأريخ الأديان ووصفها مساحة واسعة من فكر المسلمين، حيث أصَّل علماء الإسلام هذا المنهج، ثم طبقوه بموضوعية ونزاهة على أديان العالم المختلفة، فكان لهم سبق كتابة تاريخ للأديان في الفكر الإنساني كله، قبل أوروبا بأكثر من عشرة قرون، مثل أبى عيسى الوراق (من مفكري القرن الثالث الهجري) الذي كتب في الوصف والتأريخ كتابه (مقالات الناس واختلافهم)، والنوبختي في كتابه (الآراء والديانات)، وأبو المعالي العلوي في كتابه (بيان الأديان)، وكتب كثيرون كتباً بعنوان (الملل والنحل)، مثل البغدادي أبى منصور، والشهرستاني وغيرهم، وكتب بعضهم في (البرهان في معرفة الأديان).

2– منهج التحليل والمقارنة: إن علم مقارنة الأديان يقوم بالأساس على المنهج المقارن، ولا شك أن المقارن يهدف من المقارنة معرفة أعمق بموضوع المقارنة من باب، وبضدها تتمايز الأشياء، فيركز على ما بين موضوعي المقارنة من اتفاق أو اختلاف، أو متشابهات ومغايرات، ومما تجدر الإشارة إليه، أن المقارنة عندهم لم تتخذ صورة واحدة أو شكلاً واحداً، وإنما اتسع مفهوم المقارنة لديهم وتمثل في صور متنوعة، منها على سبيل المثال: أن يدرس الباحث جانباً أو أكثر من ديانتين أو أكثر ثم يقارن بينهما، ومنها أن يتناول الدارس ديانة واحدة ويدرسها دراسة عميقة، من كل جوانبها، أو بعضها في خطوة منهجية تمهيدية لباحث آخر ويدرس ديانتين أو أكثر دراسة مقارنة، ومن صور المقارنة كذلك دراسة شخصية مؤسس الديانة، أو رسلها، مثل المقارنة بين المسيح عليه السلام، وشخص بوذا أو كرشنا، ومنها دراسة الأسفار التي يقدسها أصحاب الديانات، وعلماء الأديان الغربيون.

وعلى العموم ، طريقة المقارنة تهتم بدراسة مختلف أنواع الظواهر الدينية على الخصوص بتعيين وتحليل العوامل التي تؤدي إلى التشابه والفروق في الأنواع المعينة.

3- المنهج التحليلي النقدي: يركز على ما بين موضـــوعي المقارنة من اتفاق أو اختلاف، أو متشـــابهات ومغايرات، بدون أن يتجاوزها، وهذا في الواقع ما يســـعى إليه الفكر الغربي الحديث في مجال مقارنة الأديان، وهو أمر لا بأس عليه إطلاقا. ... لكن المشكلة عندما يلح هذا الفكر الغربي على وجوب تجنب الوصول إلى نتيجة من مثل تفضيل دين على آخر كنتيجة من نتائج المقارنة ويصـــر عليه، فالمقارن بين دينين إما أن يقصـــد مجرد التعرف أو يتجاوزه إلى اختيار الأقوم والأرشـــد أو يزداد إيمانا بدينه وما إلى ذلك من الأهداف، فالفكر الغربي اختار الأول، والفكر الإسـلامي قرر الثاني، وهو في موقفه هذا ينسـجم مع فكرة " الدعوة " ، ويتفق مع طبيعة المسئولية التي أنيطت بالإنسان المسلم .

وعند التفضـــيل فلا بد أن يبين المقارن ســـبب التفضـــيل، الأمر الذي يؤدي به إلى الاســـتعانة بالمنهج النقدي لبيان المآخذ التي يراها في الديانة الأخرى التي يقارنها بالإسلام، درس المسلمون الأديان، أو جوانب منها، دراســـة نقدية في كثير من أعمالهم العلمية التي حللوا فيها جانباً معيناً أو جوانب في ديانة أخرى، تحليلاً نقدياً، ومن ذلك: دراســـة ابن حزم الأندلســـي لنص العهدين القديم والجديد، ودراســـة أبي حامد الغزالي، وكذلك تحليل المســـلمين النقدي لدعوى التثليث، والصـــلب، والقيامة، والخطيئة، والكفارة، في المسـيحية، والتناسـخ في أديان الهند، والنسـخ في اليهودية، ولجوانب مهمة في الزرادشتية والمانوية إلخ.

4- منهج الحوار والرد والمجادلة: عرف الفكر الإســلامي شـكل المناظرات الحية، التي كانت تتم في مجالس عامة، أو خاصـــة بين علماء مســـلمين وغير مســـلمين، من أصـــحاب الملل المختلفة، تطبيقا لقول الحق تبارك وتعالى: { ادْعُ إِلَى سَـــبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـــنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: الآية 125).

وهناك، كذلك، المناظرات المدونة في رسـائل أو في كتب؛ منها رسـالة راهب كلونى Cluny في جنوب فرنسا إلى أمير سرقسطة في الأندلس، وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها.

وهناك، كذلك، الدراســات الجدلية المتعلقة بالرد على قضــية، أو مســألة بعينها، أو أكثر مثل كتاب أبى عيس الوراق (الرد على فرق النصــارى الثلاث)، ورســائل الجاحظ (المختار في الرد على النصارى).

وبناءً على هذه الأطر المنهجية والمعرفية، عُرِّفَ علم دراســـة الأديان في الفكر الإســـلامي الحديث، بأنه: "علم يبحث في الملل من حيث منشأها وتطورها وانتشارها، وأتباعها، وفي العقائد والأصـــول التي تتركز عليها الملل المختلفة، وفي أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينهما، مع المقارنة والمناقشة والرد،" وهنا لم يعد مفهوم هذا العلم مقصوراً على عمليتي "الوصف والتّحليل"، كما هو الحال في تعريف علماء الغرب له، بل تضـمن عناصـر إضـافية مثل "المناقشـة والرد"، وهي عناصــر ذات طابع معياري يتجاوز بها هذا العلم من كونه أداة وصــف وتحليل، إلى أداة تصويب وتمحيص.

أهمية دراسة مقارنة الأديان

إن دراسة مقارنة الأديان لها أهميتها الخاصة حيث تحقق الأمور التالية:

1- الوقوف على حقيقة الأديان والتعرف على مدى صحتها والانحرافات التي فيها.

2- الوقوف على الأمور المتشابهة والتي تلتقي عندها الأديان وهذا يمكننا من معرفة أي منها الصحيح وأي منها المحرف.

3- يمكن الإنسان من تحديد موقفه من هذه الأديان.

4- يعطي الإنسان الفكرة الكاملة عن كل دين بحيث تمكنه من معرفة جوهره وجمع الحجج لمناظرة أهله.

لذا فالمسلمون تنبهوا لهذه القضية فجاءت دراستهم في مجال مقارنة الأديان تتصف بما يلي:

1- دراسة كل دين ومعتقد من معتقدات البشر دراسية وافية على الرغم من تعددها وتشعباتها.

2- مناقشة كل معتقد مناقشة موضوعية دون تجريح او تقبيح لأتباع ذلك المعتقد.

وزيادة على ذلك فقد اعترف الباحثون المنصفون من غير العرب بأن المسلمين كانوا سباقين في هذا الاتجاه في مجالين :

اولاً: إن المسلمين كانوا أول من طبع دراسة الأديان بطابع الاستقلالية فخلصوه من بقية المعارف والفنون وجاءت دراستهم مطبوعة بطابع الشمولية.

ثانياً: اعتمدوا في دراستهم للأديان على المصادر الموثوقة بعيداً عن الأساطير والخرافات.

فدراسة مقارنة الأديان تعني أن نقف على جميع أشكال التجارب الدينية على مر العصور بالطرق الموضوعية التي تيسر لنا الحكم على هذه التجارب الدينية للتوصل الى معرفة الأديان المنتشرة في العالم وأيها أفضل للإنسانية والفرد وكما هو معلوم أن الإنسان لا يمكن أن يصل الى الحقيقة إلا بعد تقليب الموضوعات المتعلقة بها على جميع وجوهها فلا بد من دراسة الأديان المنتشرة في العالم ومقارنتها

بعضها ببعض لنستطيع الحكم على واحد منها او أكثر بأنه صادق ولنستطيع أن نتخذه ديناً ومعتقداً، ومع انتشار الثقافة في العالم وتقدم طرق الاتصال أصبح في متناول كل فرد أن يطلع على آراء ومذاهب وأفكار المجتمعات الأخرى لينهل مما عندها من حسن ويبتعد عما عندها من رديء والذي ساعد على انتشار الثقافة هو الاختلاط والاتصال بين الشعوب بزيادة طرق الموصلات والحملات التبشيرية إذ أدى ذلك الى زيادة المعرفة بعلم مقارنة الأديان .

فهو بالنسبة للمسلمين العلم الذي يكشف لهم مدى التناقض في العقائد الأخرى ليقفوا على ما يتحلى به الإسلام من قوة أفكاره وآرائه في جميع المسائل الدينية التي لم يثبت أن ديناً يضاهي الإسلام في عرضها وبحثها.

لذا فمن واجب المسلمين أن يدرسوا هذا العلم ويدرسوه في جامعاتهم ومعاهدهم للأسباب التالية:

1- دعا الإسلام للتعرف على الأديان الأخرى حتى يتيسر للمسلم أن يعرف الحق من الباطل ليسير على هدى ويكون معتقده يقيناً لا يتزعزع ولا تؤثر فيه شبهة او يتطرق اليه احتمال.

2- واجب الدعوة الى الله ونشرها لا يتسنى لنا ذلك إلا إذا عرفنا الحجج التي تعتمد عليها الديانات لدحضها وإثبات العقيدة الإسلامية بدلاً منها كما لا بد من معرفة الشبهات التي تثيرها تلك الديانات على الإسلام للرد عليها ودحضها.

3- نظراً لما ظهر في المجتمع الإسلامي من فرق متعددة لها آراؤها في مجال العقيدة نجد أن بعضها منها استمد من الديانات القديمة او ممن دخلوا في الإسلام من أهل تلك الديانات حتى نقف لهم بالمرصاد ونحفظ علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا.